

دراسة ميدانية وإحصائية عن صناعة الكتاب في لبنان

لماذا يغيب التنسيق والشفافية بين العاملين في حلقات النشر؟

في إطار النشاطات السنوية لـ"بيروت عاصمة عالمية للكتاب 2009" وأعمالها، وبتكليف من المنسقية العامة للنشاطات ووزارة الثقافة اللبنانية، أعدت "مؤسسة البحوث والاستشارات"، دراسة ميدانية وإحصائية معمقة عن النشر في لبنان تحت عنوان "صناعة الكتاب في لبنان"، ستُنشر في أواخر هذا الشهر، مع انتهاء أعمال "بيروت عاصمة عالمية للكتاب". ننشر هنا فقرات من الدراسة تتعلق بالعلاقات السائدة بين حلقات صناعة الكتاب في لبنان، والصواهر الجديدة في النشر اللبناني، وأثر الصحافة الثقافية في ترويج الكتب. وتسهيلاً للقراءة حذفنا الجداول الإحصائية والرسوم البيانية والمراجع المرفقة بالدراسة.

تشكل الدوائر الأساسية المعنية بإنتاج الكتاب وتوزيعه - الكتاب، الناشر، الموزعون وأصحاب مكنتبات البيع - حلقات مترابطة، تؤثر كل منها في الأخرى. وتتحكم علاقات التشابك القائمة بين العاملين في هذه الدوائر بمجمل عملية إنتاج الكتاب، بوصفه إنتاجاً ثقافياً أولاً، وسلعةً ثقافيةً - تجارية تصل إلى الجمهور العام - ثانياً. أما دور الطباعة في هذه العملية، فينحصر في تنفيذ متطلبات الناشر، من دون أن يتعداها إلى الدوائر الأخرى.

غياب الشفافية والتضامن

بيّنت المقابلات التي أجريناها مع عاملين في هذه الحلقات - إضافة إلى مقابلات مع باحثين في هذا المجال - أن طبيعة العلاقات السائدة بين العاملين في دوائر صناعة الكتاب وإيصاله إلى جمهور القارئ، يغيب عنها التنسيق والتعاون والتضامن، ويحضر بدلاً منها التنافر والتجاذب والرغبة في الاستئثار. وتدفع هذه الحال بعض الباحثين إلى وصف حلقات النشر بانها "خربانية"، وبأن العلاقات بينها "ضبابية" وتشوبها حال من "الكتمان والعش والخداع، بدل الشفافية وتداول المعلومات في العلنية العامة". وينطبق هذا التوصيف أساساً على الناشرين والموزعين، وبنسبة أقل على الكتاب وأصحاب المكتبات. ويُفتقد في شبكة العلاقات هذه الحد الأدنى من التضامن والتعاون المفترضين بين أهل المهن المتصلة والمترابطة عضويًا. ولا يُشكل التنافس المهني السبب الأهم لغياب التضامن، بل أن التنافر هو باعث هذا الغياب. وهذا التنافر يتأسس على علاقات شخصية ضيقة الأفق وينعدم فيها احترام القواعد المهنية والأخلاقية. فالعاملون في حلقات صناعة الكتاب لا يقدمون صورة واضحة عن أعمالهم. وكل منهم يعتبر ضمناً أنه يعمل وينشط في دائرة ضيقة ومحدودة، ويحاول جاهداً إثبات نفسه فيها واحتكارها من دون سواه، بغية الحصول على مردود معنوي (الكتاب)، أو مادي (الناشر والموزعون)، سريعين. ويتم ذلك على حساب التنمية المهنية المستمرة والمتركمة لهذا القطاع الثقافي والتجاري المترابط الحلقات. وفي مثل هذه الظروف - التي تغيب فيها الشفافية والمعلومات الصريحة عن حلقات صناعة الكتاب - تسود عقلية القيام بـ"ضرب تجاري" سريع لتحصيل أرباح سريعة في صفوف الناشرين والموزعين، وكذلك بعض الكتاب، خصوصاً أولئك الطامحين إلى شهرة ثقافية وإعلامية سريعة من طريق العلاقات الشخصية، على حساب القيمة الثقافية والمعنوية للأعمال الأدبية والثقافية.

علاقة الكتاب والمؤلفين بالناشرين

علاقة الكتاب بالناشرين - التي يختلط فيها المادي بالمعنوي - مشوبة بالشكوك والريبة من جانب المؤلف،

وبشكوى الناشرين من قلة الكُتاب الجيدين وذوي المستوى الثقافي المرموق، ناهيك عن ضآلة إقبال الجمهور على القراءة. وتقوم أسس هذه العلاقة على ثقافة سائدة تعتبر أن العمل الذهني قيمته معنوية أكثر مما هي مادية، مستغلة حداثة عهد الكتابة والقراءة في مجتمعاتنا. فقيمة الكتابة لم ترسُ بعد على ركانز ثابتة ينجم عنها مردود مادي معترف به اجتماعياً، خصوصاً في ما يتعلق بالعلوم الإنسانية والأداب. والناشر، وفق هذه الثقافة السائدة، يعتبر أن الكلفة المادية الملموسة للكتاب (الورق والطباعة) هي الأساس في صناعته. أما الجهد الذي يبذله الكاتب فلا يتطلب استثماراً مادياً، وهو إن كان له من مقابل، فإن هذا المقابل معنوي، وفق هذه الثقافة السائدة ذاتها. ويمكن تقسيم الكُتاب إلى أربع فئات في ما يتعلق بعلاقتهم بالناشرين:

أ- مؤلفو الكتاب الثقافي العام (أدب، شعر، رواية، بحوث)

قانوناً و عرفاً، يتقاضى الكاتب ما بين 10 و 12% من قيمة مبيع كتابه، بناءً على عقد بين الطرفين. لكن هذا العقد غالباً ما يكون شكلياً أو صورياً. وغالباً ما تحدث منازعات ومناكفات بين الطرفين: الناشر يتكتم على عدد النسخ التي طبعها ويتهرب من دفع مستحقات الكاتب، والكاتب لا يجرؤ على مواجهة الناشر لتحصيل حقوقه. ولا تعلق نبرة الكاتب في مواجهته للناشر، إلا إذا كان حائزاً على شهرة ثقافية وأدبية ما، وصار يعلم أن كتبه المنشورة تلقى رواجاً في سوق الكتاب. هذا ما يؤكد الكُتاب الذين جرت مقابلتهم، وخصوصاً غير الشعراء منهم. ولا يعول الشعراء غير النجوم على أي مردود مالي من منشوراتهم، أما الشعراء الجدد أو من الأجيال الشابة، فغالباً ما يُلزمهم الناشر بالمساهمة في كلفة النشر، على ما يؤكد الناشر أنفسهم، متذمريين من نشر الشعر.

وغالباً ما يجتهد الناشر في استنهاض قيم معنوية سائدة لتخجيل الكاتب على اعتبار أن عمل هذا الأخير وشخصه يترفعان عن الاهتمام بالشؤون المادية والمالية. وفي حال قيام الناشر بدفع مستحقات مالية للكاتب، فغالباً ما يعتبرها كناية عن إكرامية. والكاتب، بدوره، في بعض الحالات يعتبر أن ما قبضه من الناشر، إن لم يكن إكرامية، فهو هبة أو هدية، أو لربما جائزة سقطت عليه فجأة ولم تكن قط في الحسبان. وللخروج من هذه الحلقة، يقوم بعض الكُتاب بابدال ناشرهم، فيعمدون إلى الانتقال الدائم من دار إلى أخرى، وذلك لسببين رئيسيين: سوء علاقتهم بناشرهم الأول، وظهور دار نشر جديدة لها سمعة أدبية ومعنوية حسنة. أما الكُتاب الذين تلقى كتبهم رواجاً واسعاً فيسعى بعضهم إلى انشاء دار نشر خاصة بمنشوراتهم، للخروج من هذه العلاقة الضبابية بدور النشر.

ب- مؤلفو الكتب المدرسية والجامعية

تُشكل طباعة الكتب المدرسية والجامعية ونشرها، محوراً أساسياً في قطاع النشر اللبناني. وتعتمد بعض دور النشر فرق عمل متخصصة في تأليف الكتب المدرسية العربية والفرنسية. والمؤلفون العاملون في هذا القطاع يتلاءم دورهم مع متطلبات البرامج المدرسية والجامعية في لبنان والبلدان العربية. والغالبية الساحقة منهم تعمل في التعليم المدرسي والجامعي. وهم غالباً ما يتقاضون من الناشرين مبالغ مقطوعة على أعمالهم، فيما يُعيد الناشر طباعة مؤلفاتهم وتوزيعها بكميات كبيرة كل سنة. وفي مجال الكتب الجامعية غير الأكاديمية التي تعتمدها الجامعات كمراجع لها، يحصل المؤلفون على حقوق نشر كغيرهم من الكُتاب.

ج- العاملون في إعداد الكتب التراثية والدينية

يعتبر الباحثون أن العاملين في هذه المهنة هم حرفيون أكثر مما هم مؤلفون. فعملهم يقتصر على وضع شروح لغوية وفقهية على كتب تراثية ودينية قديمة ومقرصنة، أو تُعاد طباعتها مرات كثيرة، وليس لمؤلفيها الأصليين حقوق تأليف، لأنهم غادروا عالمنا منذ أزمنة بعيدة. وكثيرون من العاملين في تحقيق هذه الكتب وفي إعدادها، يكونون موظفين لدى دور النشر، أو يتقاضون مبالغ مقطوعة عن أعمالهم. وهناك فئة جديدة من مؤلفي الكتب الدينية برزت منذ أواسط الثمانينات، تحت إلهام متطلبات جمهور الموجة الدينية الصاعدة لبنانياً وعربياً. وتقوم هذه الفئة بتأليف كتب عن نواهي وضوابط السلوك الديني، بما يتلاءم مع جمهور

الحركات الإسلامية الجديدة. ويتقاضى هؤلاء عن مؤلفاتهم حقوقاً كغيرهم من المؤلفين.

د- مؤلفو كتب الأطفال

تزايد عدد مؤلفي كتب الأطفال في السنوات العشرين الأخيرة، وتطورت خبراتهم الفنية والتربوية بما يتلاءم مع التربية الحديثة. ومعظم كتب الأطفال العربية كانت قبل هذه الحقبة أمّا مترجمة من اللغات الأجنبية، أو تقليدية الطابع تعتمد أساليب الوعظ المنفردة للأطفال، أو تتحدث عن "حكايات جدي". أمّا اليوم فتكثر عدد النساء العاملات في هذا المجال، تأليفاً ونشراً، بعد تحصيلهنّ خبرات أكاديمية عالية، حتّى في تأليف كتب أطفال باللغات الأجنبية. وبعض العاملات في هذا المجال، هنّ ناشطات في مجال مؤسسات وهيئات المجتمع المدني، ويتلقينّ مساعدات من منظمات دولية تنمية لتطوير صناعة كتب الأطفال. وبالنسبة إلى حقوق التأليف في هذا المجال، فانه يختلط فيها دعم المنظمات والهيئات الدولية في بعض الحالات، مع ما يتقاضاه المؤلفون في حالات أخرى من مبالغ مقطوعة على الكتب التي يؤلفونها.

الاتجاهات العامة لدور النشر

لعبت دور النشر في لبنان دوراً أساسياً في تطور صناعة الكتاب العربي وتوسيع إطارها واتجاهاتها منذ

استخدام المطبعة وحتّى اليوم. فالناشر اللبناني هو الذي قام ويقوم بتلقي أو رصد الحاجات والتمويل العامة المطلوبة في كل حقبة زمنية من حقبة النشر، فيتأقلم معها ويُلبيها. لذا، يبدو النشر في لبنان مرآة للإتجاهات الثقافية والسياسية العامة، وأبعادها الاجتماعية في لبنان والبلدان العربية. وهو يتأثر بالموجات الثقافية والسياسية السائدة أكثر مما يؤثر فيها.

أ- حقبة النشر وموجاته

توجّهت دور النشر اللبنانية منذ خمسينات القرن الماضي إلى نشر الكتب المدرسية وملحقاتها، من معاجم وقواميس وموسوعات، وذلك إستجابة لتوسّع القاعدة الاجتماعية للتعليم في لبنان والبلدان العربية. ورغم تقبلات هذا النوع من النشر صعوداً وهبوطاً وفق ظروف البلدان العربية، وتطوّر بعضها في مجال النشر، فإنّ الكتاب المدرسي والجامعي لا يزال في طليعة أنواع النشر في لبنان اليوم. وسُجّلت طفرة في نشر الكتاب الثقافي العام، أدباً وشعراً وسياسةً وبحوثاً إجتماعية، بين الستينات والثمانينات، إستجابة لموجة سياسية وثقافية، قومية عربية ويسارية في لبنان والمنطقة، وشكّلت بيروت حلقة أساسية من حلقاتها. ورغم انحسار هذه الموجة، تأقلمت دور نشر الكتاب الثقافي العربي في لبنان مع التوجّهات الجديدة في النشر، واستمرت في عملها، مستجيبةً للحاجات الجديدة في التأليف والترجمة من اللغات الأجنبية. كذلك سُجّلت طفرة في نشر الكتب الدينية، مع توسع تأثير التيارات الدينية في بيئات واسعة من المجتمعات العربية منذ الثمانينات. وشهد الكتاب التراثي والديني طلباً واسعاً، استجابت له دور النشر اللبنانية التي تكاثر عددها في هذا المجال. ولا تزال هذه الدور، تلبي الطلب على الكتاب الإسلامي الذي يحتلّ مرتبة أساسية في حجم الإنتاج اللبناني من الكتب، إلى جانب الكتب المدرسية.

ب- أنواع إصدارات دور النشر

من خلال نتائج العمل الإحصائي الميداني المتعلق بدور النشر - والذي نُفّذ خصيصاً كجزء من هذا البحث - تبين أن نسب إصدارات الكتب الدينية تفوق نسب إصدارات الكتب الأكاديمية والأطفال، وإصدارات الكتب الثقافية.

يُبيّن العمل الإحصائي عدد العناوين المنشورة في كل سنة، ولكنّه لا يُبيّن عدد النسخ المطبوعة من كل عنوان. ويتفاوت حجم صناعة الكتب في لبنان تفاوتاً كبيراً وفق أنواع الكتب. وقد بيّنت الحوارات مع

أصحاب المطابع اللبنانية، إن إنتاجها الأساسي والأكبر يتركز في طباعة الكتب المدرسية، التي يُطبع منها ما بين 10 و 50 ألف نسخة من كلِّ عنوان. أما مجموع عدد النسخ التي تُطبع من كتب الثقافة العامة، فلا يتجاوز في أيِّ من عناوينها 3000 نسخة الا في ما ندر من الكتب الرائجة. ومع الأخذ في الاعتبار حجم ما يطبع من الكتب التراثية والدينية، يتبين أن حجم الإنتاج من الكتب المدرسية والدينية، يفوق أضعافاً مضاعفة حجم إنتاج كتب الثقافة العامة.

وتظهر النتائج الإحصائية تراجع حصة دور النشر الثقافية حصراً، نظراً إلى استثناء إحدى دور النشر الثقافي، التي هي بين الدور العشرة الأكبر حجماً لجهة إنتاجها، ولكنها دخلت عام 2000 مجال نشر الكتب العلمية المتخصصة في برامج الكمبيوتر. وتوجه دور النشر الضخمة كلها نحو الكتب المدرسية والتراثية والدينية، ويستأثر التصدير الخارجي بالحجم الأكبر من إنتاجها. ويميل حجم إنتاج الكتب الدينية إلى مزيد من الإرتفاع، إذا ما أضفنا عشرات دور النشر التي نشأت في ضاحية بيروت الجنوبية ما بين العامين 1985 و 2004، وغالبيتها الساحقة مخصصة لإنتاج الكتب الدينية.

ج- أسواق دور النشر ومبيعاتها

تتباين المعطيات في هذا المجال وفق مصادرها. فهناك "وثيقة" صادرة عن وزارة الثقافة تشير إلى أن 10 في المئة من إنتاج لبنان السنوي من الكتب تستهلكه السوق المحلية، والباقي يُصدَّر إلى انحاء العالم العربي والجاليات العربية في أوروبا وبلدان أخرى. أما المقابلات مع الناشرين في مجال الكتاب الثقافي العام - الذي يعتبر حجم إنتاجه محدوداً بالمقارنة مع حجم إنتاج الكتب المدرسية والدينية - فقد بيّنت أن المبيعات في السوق الداخلية تراوح ما بين 40 و 50 في المئة، والباقي يُصدَّر إلى الأسواق الخارجية وخصوصاً العربية. وبالنسبة للكتب المدرسية والدينية فإن المقابلات مع ناشري هذه الكتب أظهرت أن ما يُصدَّر منها إلى الخارج يفوق باضعاف ما يوزع محلياً. وبيّنت الإستمارة الموجهة إلى دور النشر أن الأسواق العربية والأجنبية تستأثر بنحو ثلثي إجمالي مبيعات دور النشر، معظمها يعود على الأرجح إلى الكتاب المدرسي والتراثي والديني.

د- التنظيم المهني والإداري لدور النشر

يكثُر الكلام عن أنّ غالبية الناشرين في لبنان هم تجار كتب، أكثر مما هم منشئو مؤسسات نشر مهنية ومحترفة. وينطبق هذا الوصف بدرجات متفاوتة على أسلوب عمل دور النشر، وعلى البيئة الاجتماعية والثقافية لمؤسسيها وورثتهم، وعلى أنواع الكتب التي تنشرها. تبيّن من خلال المقابلات والحوارات مع ناشرين وموزعين، أنّ آليات العمل في دور النشر تتسم بالخصائية، التي تنعكس في مجمل أقسام العمل. فمعظم الدور تفتقد إلى هيئات إستشارية لتقييم المخطوطات وتحضيرها للنشر. وغياب مثل هذه الهيئات في معظم الدور يُستعاضُ عنه بالتقديرات الخاصة لصاحب الدار وبالعلاقات الشخصية وخبرته العملية. وتعتمد دور النشر في مجال الترجمة من اللغات الأجنبية، على مترجمين غير ثابتين وقليلي الخبرة، وغالبيتهم من الصنف غير المتطلب مادياً، ممّا يعكس بصورة عامة رداءة في نوعية الترجمة وفي عدم صلاحيتها للقراءة في السنوات العشرين المنصرمة. ويصعب، بل يُندر، وجود قسم للتسويق في دار النشر طالما أنّ صاحبها هو الذي يقرر غالباً أسلوب العمل وإتجاهات النشر وفق تقديراته وميوله وعلاقاته. أما في مجال التوزيع، فالناشر هو نفسه يتولى دور الموزع، توفيراً لكلفة التوزيع التي يعتبرها مرتفعة، مما يعزّز تشابك واختلاط مهنة النشر بمهنة التوزيع. ومع ذلك فإن معظم أصحاب دور النشر يشكون غياب موزعين محترفين وشركات توزيع متخصصة، ويُلقِي كلُّ منهم باللائمة على الآخرين. وفي حال اعتمدت قلة من الناشرين على موزعين، فإنهم غالباً ما يشتكون من الموزع لكتمانه المعلومات عن الكتاب الناجح في السوق، ويهتمونه في بعض الحالات باستنساخ الكتاب وتوزيعه لحسابه الخاص. والموزعون بدورهم غالباً ما يتدمرون من الناشرين، بحجة أنّ هؤلاء يتولون بأنفسهم توزيع الكتب التي يُنتجونها.

خصائص التنظيم المهني في دور النشر

نعرض هنا بعض خصائص تنظيم العمل المهني والإداري في دور النشر، وفق نوع هذه الدور، في ضوء حصيلة المعلومات التي أفضت إليها المقابلات الخاصة بهذا البحث.

أ- دور نشر الكتب المدرسية والأكاديمية

تُعتبر هذه الدور الأسبق عهداً من غيرها في المهنة، وكثيرون من اصحابها وورثتها عملوا سابقاً في مجال الطباعة ومكتبات بيع الكتب ونشر الأدب اللبناني. وتعتبر القديمة من هذه الدور، من كبريات دور النشر في لبنان راهناً. وقد وسّعت أعمالها إلى إنشاء شركات توزيع ناشطة في السوق اللبنانية والأسواق العربية. ومن بين هذه الدور، ثمة داران منها لنشر الكتب المدرسية والموسوعات والقواميس والمؤلفات التراثية والدينية المسيحية، وهما تحتلان راهناً طليعة الدور اللبنانية، قياساً بحجم الإنتاج. ويمتلك كل من هاتين الدارين شركة توزيع خاصة به، توزّع كتباً مدرسية، وأخرى متنوعة ومختارة باعتبارها ناجحة ورائجة وسهلة التوزيع. وقد تحوّل بعض هذه الدور مؤسسات بأقسام وفروع متنوعة، واعتمد وسائل تنظيم حديثة ومتطورة نسبياً في مجال العمل والإدارة.

ب- دور نشر الكتب التراثية والدينية

تحضر في هذا النوع من دور النشر، الخبرات المهنية والحرفية المتوارثة بقوة لافته، خصوصاً في مجال نشر الكتاب الإسلامي. وتختلط في إنتاج هذا النوع من الكتب، الإلتزامات والصفقات المسبقة مع شبكات توزيع رمادية، تعمل وتنشط خارج نطاق التسويق الثقافي الحديث، وشبكات توزيعه وإعلامه، مع بعض التفاوت ما بين الكتاب الديني الإسلامي والكتاب الديني المسيحي. فعلى مستوى الكتاب الديني الإسلامي، يُسجّل أنّ معظم أصحاب دور النشر المعنيين يحملون ثقافة تقليدية ودخلوا إلى المهنة من باب الخبرة العائلية، وتزايد عددهم مع ظهور التيارات الدينية الإسلامية وانتشارها. وبالرغم من توسّع أعمالهم، استمروا في المهنة من دون تحديث معارفهم وثقافتهم العامة، معتمدين على ما حصلوه بالإختبار والتجربة، خلال العمل نفسه، نشرًا وتوزيعاً في أسواق الكتاب الإسلامي الواسعة. وفي الغالب تبدو أعمال هذه الدور وشبكات توزيعها الواسعة شبيهة بأعمال طوائف الحرف التقليدية القديمة المتوارثة والمتجددة. وهي تتقاطع أحياناً مع شبكات توزيع الكتاب الثقافي العام، لكنها غالباً ما تستقل عنها. كما تمتد شبكات توزيع هذا الكتاب إلى بلدان إسلامية غير عربية، لا تصل إليها الأنواع الأخرى من الكتب.

أمّا على مستوى الكتاب الديني المسيحي، فإن دور النشر المعنية تعتبر الأقدم في لبنان، وقد نشأت مع وصول المطبعة إلى جبل لبنان. وفي الخمسينات تبدلت أنواع الكتب التي تنشرها هذه الدور مع تراجع الطلب على الكتاب الديني المسيحي. ونشأت إثر ذلك جمعيات وتعاونيات، ضمت عدداً من دور نشر هذه الكتب وتوزيعها، وخصوصاً في ما يتعلق بالكتاب المقدس. وفي التسعينات من القرن العشرين، تزايد الطلب على هذه الكتب في لبنان وبعض الدول العربية (سوريا، مصر، العراق والأردن) وصولاً إلى الجاليات المسيحية المشرقية في أوروبا وأميركا الشمالية. وقد أصدرت إحدى كبريات دور النشر اللبنانية (الضخمة الإنتاج في الكتب المدرسية)، 8 كتب دينية مسيحية جديدة العام 2007، وجددت طباعة 42 كتاباً دينياً قديماً. ثم تولّت العام 2008 إصدار 9 كتب جديدة، وأضافت إليها 16 كتاباً عام 2009. ويتوقع مدير الدار إصدار ما بين 16 و20 كتاباً دينياً مسيحياً جديداً العام 2010. وبلغ إجمالي عدد النسخ التي طبعت من هذه الكتب مجتمعةً عام 2008، نحو 900 ألف نسخة. وأصدرت أخيراً داراً أخرى متخصصة في نشر الكتاب المقدس، الطبعة 26 منه، والنسخة المليون من هذا الكتاب.

ج- دور نشر الكتاب الثقافي العام

يغلب على هذه الفئة من الناشرين تأسيسهم الفردي لدور النشر. وهم في غالبيتهم من المتعلمين، وكانوا ناشطين في تيارات ثقافية وسياسية إزدهرت في حقبات متلاحقة منذ الستينات، مع غلبة الوجه الثقافي لهذه التوجهات اليوم. وبخلاف الفنّين الأوليين، يُنوع هذا الصنف من الناشرين إنتاجه وفق متطلبات السوق الثقافية في لبنان والبلدان العربية. وأظهرت المقابلات مع ناشرين في المجال الثقافي العام، أنّ معظمهم يقومون بإدارة أعمالهم بانفسهم، من تلقي المخطوطات من الكتاب، وحتى وصول الكتاب إلى الأسواق. وهم يستعينون بموظفين وعمال اكتسبوا خبراتهم خلال العمل نفسه.

ظواهر جديدة في النشر

بيّنت المقابلات مع ناشرين أنّ النشر في لبنان يشهد عدداً من الظواهر الجديدة في مجالات مختلفة. ويُمكن حصر هذه الظواهر في العناوين الآتية:

- إزدهار النشر المشترك في التأليف والترجمة
- اعتماد الدور الكبرى على الكتاب الراج
- بروز طفرة في الرواية العربية

أ - إزدهار النشر المشترك تأليفاً وترجمة

لم تكن ظاهرة النشر المشترك، بين دور لبنانية وأخرى عربية، معروفة وشائعة في تسعينات القرن الماضي، إلا في ما ندر. والنشر المشترك عمل تعاوني ما بين دور نشر مستقلة، وهو مختلف عن تفرع دار نشر إلى فروع متعددة. وقد بيّنت نتائج الدراسة الميدانية عن الناشرين، أنّ 22 في المئة من الدور النشطة في لبنان تمتلك أكثر من دار واحدة، وأن 46 في المئة منها فروعها في لبنان، و35 في المئة فروعها في بلدان عربية. وبدأت ظاهرة النشر المشترك تبرز منذ عام 2000، عبر تعاون دور لبنانية ودور ومؤسسات ثقافية عربية، لإصدار كتب محددة، يجري الإتفاق مسبقاً على نشرها. وتقوم في الوقت الراهن بهذا العمل، وفي شكل دوري، أكثر من 10 دور لبنانية، تنشط كلها في مجال نشر الكتاب الثقافي العام، الأدبي والبحثي. وتُستأثر الترجمة من اللغات الأجنبية بالقسط الأكبر من هذا العمل التعاوني المشترك. والدور والمؤسسات العربية المتعاونة مع الدور اللبنانية، هي كويتية وسعودية وإماراتية ومغربية وجزائرية، مع غلبة الخليجية على الأخرى. وقد تكون هذه الظاهرة بديلاً عن ظاهرة كانت قائمة أيام طفرة النشر الثقافي اللبناني على خلفية الموجة القومية العربية واليسارية، بين الستينات والثمانينات. آنذاك، كانت دوراً لبنانية كثيرة، تتلقى تسهيلات ومساعدات مالية من بلدان عربية، خصوصاً العراق وليبيا. وكانت التسهيلات تتمثل في شراء عدد كبير من منشورات الدور اللبنانية. لكن هذه الظاهرة انتهى عهدها مع تراجع أجهزة الدولتين العراقية والليبية عن "الاستثمار" الثقافي والسياسي في بيروت.

• في الترجمة:

شكّلت الترجمات الأدبية مادةً أساسية في ظاهرة النشر المشترك. فنأشرو الكتاب الثقافي في لبنان، يُجمعون على أنّ الكتاب المترجم، يستلزم إمكانيات إستثنائية (كلفة الترجمة العالية، كلفة شراء حقوق دار النشر الأجنبية) ويصعب إصداره من دون مساعدات. وقد نشر أحد هؤلاء الناشرين، ما يصل إلى 160 كتاباً مترجماً في السنوات العشر الأخيرة، لقاء مساعدات زهيدة من وزارة الثقافة الفرنسية. وعقدت هذه الدار عام 2009، اتفاقاً مع مؤسسة ثقافية خليجية، لترجمة 25 كتاباً في السنة، على أن تشتري المؤسسة الخليجية المتعاونة 1500 نسخة من كلّ كتاب يُطبع منه 3000 نسخة. وأبرمت دار نشر لبنانية أخرى، متخصصة في نشر الرواية، إتفاق نشر مشترك العام 2005 مع دار إماراتية لنشر 8 روايات كبرى من الأدب العالمي في السنة، والإتفاق مستمر حتى الآن. ونشأت في بيروت عام 2000 مؤسسة نشر ثقافية، متخصصة في

ترجمة الأعمال الفكرية العالمية الأساسية، بالإستناد إلى مساعدات من مؤسسات خليجية. وقد أصدرت هذه المؤسسة أكثر من 100 كتاب مترجم. وفي المقابل، إتجهت مصادقية كتب البحوث والفكر التي يؤلفها كتاب عرب نحو التراجع، وتضاءل الإقبال عليها مقارنة مع المترجم منها.

• في التأليف:

لم تُشكّل الترجمة وحدها مجال ظاهرة النشر المشترك، بل أنّ هذه الأخيرة شملت المؤلفات الأدبية والبحثية العربية، وخصوصاً الرواية. ويقوم تعاون بين ما يزيد عن 6 دور نشر لبنانية وأخرى خليجية على إصدارات مشتركة لمؤلفين عرب (خليجيين خصوصاً). لكن هذا التعاون لا يقتصر على دور لبنانية وخليجية، بل يمتد إلى بلدان المغرب العربي، حيث تتعاون أربع دوراً لبنانية أخرى مع دور مغربية وجزائرية وتونسية، على أعمال نشر في مجال البحوث الفكرية والاجتماعية، وبخاصة لمؤلفين مغاربة وجزائريين. وفي حالات قليلة، ثمة تعاون على نشر مشترك بين دور لبنانية، مجالها الأعمال الروائية. وبصورة عامة، لا تزال ظاهرة النشر المشترك في بدايتها، وهي تستجيب في وجه من وجوها إلى حاجة الدور اللبنانية إلى توسيع أعمالها ودعمها، خصوصاً في مجال الترجمة.

ب- اعتماد الدور الكبرى على الكتاب الراج

تتمثل إحدى الظواهر الجديدة في إتجاه ثلاث أو أربع من دور النشر اللبنانية للكتاب الثقافي العام، نحو توسيع إنتاجها والتحول مؤسسات كبرى على صعيد الإنتاج والتوزيع. وثمة داران على الأقل نتجه كلّ منهما إلى إصدار كتاب جديد كلّ يوم. والكتب الأساسية التي تعتمد عليها هذه الدور، هي كتب راجة. ومن هذه الكتب هناك بعض الروايات العربية والمترجمة، التي تنتشر خارج النطاق الثقافي الضيق، وتتجه إلى أوساط واسعة من عموم القراء. وهناك أيضاً المذكرات السياسية العربية والعالمية، إضافة إلى الكتاب الحداثي، الذي يتناول حوادث سياسية مشهودة، عربية ودولية. وتترافق ظاهرة التوسع في نشر الكتب الراجة مع ظاهرة أخرى، هي تمركز نشر هذا النوع من الكتب مع غيره من أنواع الكتاب الثقافي العام في عدد محدود من دور النشر البيروتية. وتتجه هذه الدور راهناً نحو إرساء بناء مؤسسي في مجالي الإنتاج والتوزيع، في محاولة لاستعادة تجارب ناجحة كانت برزت في فترات عدّة سابقة، بدءاً من الستينات، عبر دور نشر بيروتية للكتاب الثقافي العام.

ج- طفرة الرواية العربية

تميل الرواية العربية إلى أن تكون النوع الرئيسي في الكتابة والنشر والرواج على صعيد الكتاب الثقافي العام. وقد تلقّت دور النشر الثقافية اللبنانية والعربية هذه الظاهرة وتأقلمت معها، وأخذت تفضّل نشر الأعمال الروائية على غيرها. والروائيون اللبنانيون والعرب يفضّلون نشر أعمالهم في بيروت. وتلقّت إحدى دور النشر من بلدان عربية مختلفة، ما بين 350-400 مخطوطة من المؤلفات الروائية سنوياً، ما بين العامين 2005 و 2009. وفي طليعة هذه البلدان تأتي سوريا، وتليها السعودية، ثم اليمن والسودان وموريتانيا وجيبوتي، وأخيراً لبنان. ولا تنتشر هذه الدار أكثر من 40-50 رواية سنوياً، من إجمالي هذه المخطوطات. وهناك سعي من جانب هذه الدار وغيرها إلى دخول باب النشر الإلكتروني عبر الإنترنت. بيد أنّ هذا النوع من النشر يحتاج إلى رؤوس أموال ضخمة، ولا يمكن أن تقوم به دار نشر منفردة. وتقوم مساع لإقامة مشاريع مشتركة مع مؤسسات ثقافية وحكومية، خليجية خصوصاً، لإنجاز هذا المشروع. (فريق العمل المساهم في الدراسة:كمال حمدان (منسق عام)، رضا حمدان (الإحصاء والتنفيذ التقني)، ريماء عليق (منسقة العمل الميداني)، رامي كيوان (باحث)، محمد أبي سمرا (كتابة التقرير عن حلقات النشر)، حسان حمدان (باحث)، سعاد أبي سمرا (باحثة)، ابراهيم غندور (باحث)، عدنان حمود (باحث).)

